نبني الدنيا لكننا نحب الآخرة

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ 2008/10/31م

مما يُميِّز ديننا أنه دينٌ لم يقم على أساسٍ لاهوتيٍّ صِرف، أي لم يكن دِينًا يوجِّه الإنسان إلى الروحانية بعيدًا عن الحِس والواقعية، إنما كان دينًا يوجِّه باطن الإنسان إلى روحانيته ليبقى في صفائها، في نفس الوقت الذي يوجِّه سلوكَ الإنسان وعملَه توجيهًا يبني من خلاله أرضًا تنتظر سلوكه المستقيم.

وهذا الجَمع بين الروحانية التي تعطي الإنسان نقاءَه في قلبه، وسلوك الإنسان العمليّ المُنتِج والفاعل والمؤثِّر تأثيرًا إيجابيًّا في البيئة الحِسيّة المحيطة لا يوجد إلاَّ في الإسلام، وإن شئت قلت: على مستوى الاستقراء المعاصِر، لأن تعاليم ربّنا سبحانه وتعالى للإنسان - منذ أنــزل تعاليمه إلى الإنسان - كانت تتوجّه بهذا الإطار.

ونحن نتحدّث على مستوى الاستقراء المعاصِر، فمن الخطأ أن نُردد الآيات التي تتحدّث عن أن الدنيا لعب ولهو لنعكسها على السلوك الظاهر، وما هي إلا آيات تعالج حبّ الإنسان الباطن للدنيا، كما أنه من الخطأ أن نجعل الدِين دِينًا روحانيًّا لا يعبأ بالواقع ولا يلتفت إلى حركة الإنسان.

وهكذا أردت في هذه الساعة المباركة أن ألفت النظر في هذا الدرس المبارك إلى موضوعين اثنين:

* **أما الموضوع الأول فهو:** أن الإسلام أراد من الإنسان أن يبني الدنيا بناءً متميّزًا، واعتبر الزمنَ الذي خلق الله سبحانه وتعالى فيه الإنسان وسماه الدنيا، كما أنه في الوقت نفسه لم يكن يريد لباطنه أن يتعلّق بهذه الحقبة القصيرة التي اسمها الدنيا.

ومن هنا فإن كل آية في القرآن تتحدث عن قيمة الدنيا الملغاة فإنها تُخاطب الباطن، وكل آية تتحدث عن توجيه القلب إلى الآخرة فإنها تتوجه إلى الباطن أيضًا.

لكنني سأتحدّث عن الوجه الآخر، فقد اعتبر الله سبحانه وتعالى - من حيث سلوك الإنسان وحركته في الحِس - هذه المدّة التي اسمها الدنيا، كما أنه وجَّه باطن الإنسان إلى الآخرة.

أما اعتبار ربّنا تبارك وتعالى للدنيا الذي يُوجب علينا بناءها بما يتناسب مع نظامه سبحانه وتعالى، فإننا نختار من توجيه القرآن وآياته بعضًا من العناوين:

1- الاصطفاء في الدنيا:

فقال سبحانه: { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [البقرة: 130] فجعل زمان ظهور الاصطفاء، الذي علمه في الأزل وأراده، في الدنيا، فكانت الدنيا إذًا محلَّ الاصطفاء بحسب توجيه الله سبحانه وتعالى لنا، وبحسب ما نقرؤه في كتاب ربّنا تبارك وتعالى.

وحين تكون المدّة الزمنية مدّة اصطفاء، فإن الإنسان يفهم من ذلك أنها حقبة مهمّة ينبغي عليه أن يكون فيها مُهيَّأً لهذا الاصطفاء.

2- اعتبار الجاه في الدنيا إذا اقترن بجاه الآخرة:

الجاه مُعتبَرٌ في القرآن حين يكون جاهًا دنيويًّا مُقترِنًا بالجاه في الآخرة، لكن حين يكون جاهًا في الدنيا منقطعًا عن جاه الآخرة، بمعنى أنه ذليل في الآخرة لكنه عزيز في الدنيا، فهذا الجاه الدنيوي غير مُعتبَر.

وعلى هذا فإن القرآن الكريم عندما أورد الجاه أورده مقترنًا بجاه الآخرة، فجاه الدنيا الذي يقترن بجاه الآخرة مُعتبَرٌ في القرآن، واقرؤوا قوله تعالى: { إِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ } [آل عمران: 45] فاعتبر الله سبحانه وتعالى جاه عيسى عليه الصلاة والسلام في الدنيا، والتفافَ الناس حوله، واعتبارَ الناس له، لأن ذلك الجاه كان مُقترِنًا بجاه الآخرة.

3- اعتبار خسارة الدنيا: ولا يمكن أن تُذكَرَ خسارةُ شيءٍ لا اعتبار له، لأنه عند ذلك يكون القرآن عبثيًّا، فلو لم تكن للدنيا قيمة ثم ذكر الله سبحانه وتعالى خسارتها فإن هذا يعني عبثية القرآن، لأن العقلاء لا يقبلون أن يُقال: خَسِر ما لا قيمة له، والله سبحانه وتعالى ذكر في القرآن خسارة الدنيا، فقال سبحانه وتعالى: { وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [الحج: 11]

ولاحظوا أيضًا اقتران خسارة الدنيا بخسارة الآخرة، وأما خسارة الدنيا التي تكون مع رِبْح الآخرة فإن الله سبحانه وتعالى امتدحها في مواطن كثيرة، منها ما كان في حادثة السحرة مع فرعون عندما قالوا له: { فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } [طه: 72] فهي ربح في الآخرة يقترن بخسارة للدنيا.

لكن عندما يخسر الإنسان الدنيا مع الآخرة، فإنه يخسر خسارة كبيرة، فلاحظوا من هذه الآية كيف أن الدنيا تستمد قيمتها من الآخرة، فإذا استطاع المؤمن أن يربط الدنيا بالآخرة عندها يكون للدنيا اعتبار.

4- إثبات وجود الحسنة في الدنيا: قال سبحانه: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [البقرة: 201] فأثبت أن للآخرة حسنة وأن للدنيا حسنة، وهذا يوجّه العقلاء أيضًا إلى أن المؤمن ينبغي عليه أن يبحث عن حسنة الدنيا.

5- طلبه سبحانه وتعالى من المؤمن طلبًا تكليفيًّا بإعمار الأرض: قال سبحانه: { هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } [هود: 61] فإهمال المسلم لدوره في الإعمار الحِسّيّ جهلٌ بالإسلام.

وعندما يُحيّد المسلم نفسه ويقول: لا علاقة لي بإنشاء الحضارة، ولا علاقة لي ببناء النهضة... فإنه عند ذلك يكون جاهلاً بالإسلام، لأن الله سبحانه وتعالى طلب من الإنسان أن يُعمِّر الأرض، ومن المؤمن بشكل أخصّ، لأن المؤمن ينفعل قلبه لخطاب الله تعالى في القرآن.

6- اعتبار دور المال في إقامة المجتمع والحضارة: وذلك بقوله سبحانه: { وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا } [النساء: 5] فصرّح سبحانه وتعالى في القرآن بدور المال في قيام الحضارة، وذلك حينما يُوظَّف هذا المال لإقامة الحضارة ولإقامة مجتمع متحضِّر، وهذا يجعل المؤمن فاهمًا لدور المال وتوظيفه، ويمنعه أن يكون مُبذِّرًا (أي فوضويًّا) في إنفاق ذلك المال، فضلاً عن أن يكون مسرفًا أي منفقًا لذلك المال في الحرام.

7- نلاحظ على لسان رسول من رسل الله، أنه يطلب من الله سبحانه وتعالى إزالة المال من أيدي المفسدين: وعندما نقرأ هذه الآية، نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول حاكيًا عن موسى عليه الصلاة والسلام: { وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [يونس: 88]

وهو بهذا - كما يُصرِّح في الآية السابقة بدور المال في قيام المجتمع والحضارة - فإنه يصرِّح بدور المال في الإفساد، وذلك عندما يوظَّف من أجل الإضرار ومن أجل الإفساد.

وما الذي يحصل اليوم في زماننا هذا؟

وكم يُنفق على الأفلام التي تُحلل الأخلاق؟

وكم يُنفق من الأموال على الفضائيات التي تنشر ثقافة العُهر وتحذف ثقافة الفضيلة؟

وكم يُنفق من الأموال من أجل قلب الحق باطلاً وقلبِ الباطل حقًّا؟

إذًا: حين يُحيّد المسلمون أنفسهم عن هذا الجانب، فإنهم بذلك لا يفهمون توجيه الله.

* **ثم ننتقل إلى الجانب الآخر الذي هو باطن الإنسان،** فالدور الظاهر ينبغي أن يكون مفهومًا من خلال ما تقدّم، لكن الخطورة تكمن في أن يدخل حبُّ الدنيا إلى القلب.

وقد مثَّلوا مثالاً جميلاً حينما قالوا: إن الدنيا ينبغي أن تكون كالماء، لا ينبغي أن يدخل إلى السفينة، فينبغي أن يكون قلب الإنسان في الدنيا مثل السفينة في الماء، فإذا دخل الماء إلى السفينة غرقت.

فالإنسان يتعامل مع الدنيا، ويبني الحضارة، ويؤسس للنهضة، وينشر العِلم، ويتحرك في العمل المُنتِج... لكنه لا يسمح للمحسوس أن يدخل إلى باطنه.

وهاهنا نجد في القرآن الكريم أمورًا مهمّة، منها:

1- **إرادة القلب للدنيا سبب هلاك:** قال سبحانه: { مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا } [الإسراء: 18-19]

إنه يتحدث عن قضية باطنة هي الإرادة، فلا يتحدّث عن السعي إنما يتحدّث عن الإرادة، فقال:

- { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ } أي الدنيا، { عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ } أي وصله قَسْمنا الأزلي فيها، { ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا } لأن إرادة الدنيا كانت في قلبه، فصرَّح أن إرادة الدنيا حينما تستقر في القلب تكون سبب مصيرٍ سيّء، لأن الإنسان سيكون في جهنم خالدًا مُخلَّدًا.

- { وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } فإرادة الآخرة ينبغي أن تقترن بالسعي لها، والسعي للآخرة إنما هو ما تقدّم، فهو يعبد الله بالعبادات التوقيفية المعلومة، ويعبد الله بإعمار الأرض.

فالإنسان يعبد الله بعبادتين: عبادة لا علاقة للحِس بها كالصلاة والصيام، وعبادة يعبد الله سبحانه وتعالى فيها من خلال بناء الحضارة، وقد أشرنا إلى هذا فيما تقدّم، فهو من السعي إلى الآخرة، وإلاَّ لو كان السعي إلى الآخرة هو الإيمان فقط لما قال سبحانه: { وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ } فأراد أن يُبيّن أن السعي المقصود إنما هو حركة، وهذه الحركة ينبغي أن تكون هادفة وموظَّفة.

2- **النهي عن حبِّ الدنيا:** وذلك في قوله: { كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ } فمصيبتكم أنكم أحببتم الدنيا وتركتم الآخرة، التي فيها وجوه تنظر إلى ربِّها، وتنظر إلى جمال ربِّها، وما نعيم الجنّة بكل ما فيه إلاَّ شيءٌ يسيرٌ لا يُذكر إذا ما قارنته بنعيم النظر إلى وجه ربِّنا الكريم.

{ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ }

{ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ، تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ } [القيامة: 20-25] أي تظن أن عذابًا يكسر ظهرها سوف ينــزل بها.

هذه هي الآخرة التي يُهملها من ملأ حبُّ الدنيا قلبه.

3- وبعدها فإن القرآن يوجِّهنا بطريقة غير مباشرة، على لسان الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، الذي ينقل القرآن عنه قوله: { فَلَمَّا أَفَلَ } أي لما أفل الكوكب وهو ينظر إليه في السماء، { قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ } [الأنعام: 76]

وانظروا إلى التوجيه من خلال المثال في قوله: { لا أُحِبُّ الآفِلِينَ } فالدنيا آفلة وزائلة، أما الباقي فإنه الله، فكيف أوجِّه قلبي إلى آفِلٍ؟!

فالأشخاص يموتون، والأموال تزول، والدنيا تفنى... ويبقى وجه ربِّك، فلماذا تحب الآفلين؟

ما الذي أصابك أيها الإنسان حينما أعرضت عن ملّة إبراهيم، فأحببت الآفلين؟

فمـــــاَ الـــــدُّنيا بباقِيَـــــةٍ لِحَـــــيّ		ومـــــا حـــــيٌّ عَلـــــى الـــــدُّنيا بِبـــــاقِ

4- وعندما تعلم أيها المؤمن أن الله يريد الآخرة، فإن تعلُّقك بالله يجعلك تريد ما أراد الله، لأنه سبحانه قال في سورة الأنفال: { وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ } [الأنفال: 67] فإذا كان الله يريد الآخرة فكيف تريد الدنيا؟

ألم يُنـزل ربُّنا سبحانه وتعالى في البيت النبويّ الشريف مُخاطِبًا نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوان الله عليهنّ قوله: { إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا } [الأحزاب: 28-29]

إذًا: القضية قضية تناسب: الله يريد الآخرة، فرسوله إذًا يريد الآخرة، فلا يناسب أن يكون في ذلك البيت النبوي من لا تريد الآخرة وتريد الدنيا.

ولا يناسب أن يكون المؤمنون - وهم يرون أن الله يريد الآخرة وأن رسوله يريد الآخرة - لا يناسب أن يكون المؤمن مريدًا إلاَّ للآخرة.

وهذا لا يتنافى مع إرادة وجه الله، لأن إرادة الآخرة إنما هي إرادة محل الضيافة، الذي فيه ينظر المؤمنون إلى وجه الله الكريم.

5- أنه سبحانه وتعالى لم يكن فقط مريدًا للآخرة، بل كان داعيًا لها، فهو أراد الآخرة كما في النص السابق، ودعانا إلى الآخرة.

قال سبحانه وتعالى: { وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ } [البقرة: 22]

وقال: { وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران:133]

6- **اعتبار الله تعالى لخيرية الآخرة:** وألمح إلى أنه لا يلاحظ هذه الخيرية إلا العقلاء، أما الذين سترت المادة عقولهم وغيّبتها فإنهم لا يلاحظونها، قال سبحانه: { وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ }

[الأعراف: 69] أي أفلا تعقلون هذه الحقيقة، فاعتبر الله خيرية الآخرة ثم قال: { أَفَلا تَعْقِلُونَ } أي ألا تلاحظون هذه الخيرية أم أن المادة قد غيَّبت عقولكم؟

7- المُعتَبرون من المؤمنين الذين طلبوا الجنة مع أنهم ملكوا الدنيا كلها:

قال تعالى: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [التحريم: 11]

هكذا يكون المؤمن متوازنًا، وهكذا يفهم الإسلام فيبني الدنيا، لكنه يحب الآخرة.

اللهم اجعلنا كذلك، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.